



إسهامات المثقفين الجزائريين في إثراء الدراسات الخاصة بالعهد العثماني

أحمد توفيق المدني أنموذجا -

The contributions of Algerian intellectuals to enrich the studies of the
Ottoman era - Ahmed Taoufik El Madani Model

فاطمة الزهراء نور.

جامعة الجزائر 2.

.nourf1979@gmail.com

تاريخ القبول : 2019-11-09

تاريخ الاستلام : 2018-05-30

الملخص:

ساهم الكثير من المثقفين الجزائريين خلال الفترة الاستعمارية، في كتابة تاريخ الجزائر عبر مختلف عصورها التاريخية، ورغم أنه لم تكن لهم دراية بقواعد المنهجية التاريخية، إلا أنهم استطاعوا أن يوصلوا لنا مادة تاريخية ما زال الباحثون والطلبة يعتمدون عليها حتى يومنا هذا، وكان همهم الأكبر هو مواجهة المدرسة الفرنسية الاستعمارية والرد عليها، والتي حاولت بكل الوسائل طمس هوية الجزائريين، واعتبارهم أهالي لا مرجعية لهم، وإفهامهم بأنه لا تاريخ لهم.

الكلمات المفتاحية: أiyالة الجزائر، العهد العثماني، أحمد توفيق المدني، المؤلفات الأجنبية، القرصنة.

Abstract

:

During the colonial period, several Algerian intellectuals have contributed in writing and documenting the Algerian history through its various historical eras. Even though they were unfamiliar with the rules of historical methodology, they were still able to form and produce historical materials that are still to this day used by researchers and students, while their major concern was to confront the colonial French School that decidedly sought to obliterate the identity of the Algerians, as it considered these intellectuals to be inexperienced with unknowledgeable sources and tried to indoctrinate them to have no history.

Keywords: Provence of Algeria, Ottoman era, Ahmed Taoufik El Madani, Foreign writings, hacking.

المقدمة:

الشخصيات الجزائرية المثقفة التي جمعت بين العديد من المواهب خلال القرن العشرين، فهو السياسي الذي دخل هذا المجال وهو شاب يافع لم يتجاوز السابعة عشر من عمره، وهو الأديب الصحفي الذي له باع طويل في مجال الصحافة، وهو فوق هذا المؤرخ الذي كتب عن تاريخ الجزائر منذ أقدم عصورها وحتى الاستقلال. وسوف نستعرض بعض الجوانب من حياته، لنتعرف على الظروف التي كتب فيها مؤلفاته، وعن الأسباب التي جعلته يخوض مجال الكتابة في التاريخ.

التعريف بأحمد توفيق المدني:

إن كتابة تاريخ الجزائر خصوصاً العهد العثماني منه شكل تحدياً كبيراً بالنسبة للنخبة الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية، وقد خاض العديد منهم هذا المجال، وانطلاقاً من هذا المفهوم يقول أحمد توفيق المدني – وهو المخصص بالدراسة- في مذكراته ما يلي: "اقتنعت نفسي بأن سد هذه الثلمة الكبيرة واجب محتم، بل فرض مقدس يجب أن يقوم به من استطاع إليه سبيلاً"⁽¹⁾.

و شخصية "أحمد توفيق المدني" غنية عن كل تعريف، ولا أجنب الصواب إذا قلت أنه يعد من أبرز

هذه المناسبة و طلب تخفيف مدة العقوبة عنه، و في الأخير تمكن من إخراجه من السجن بدعوى أن موكله كان صغيرا حين حدثت تلك الوقائع، و استغل في ذلك عدم وجود نظام للحالة المدنية بتونس آنذاك، و طعن بأن موكله من مواليد 16 جوان 1899، و هو التاريخ الذي بقي في أوراقه في الحالة المدنية⁽⁸⁾.

و في سنة 1920 ساهم في إنشاء الحزب الدستوري مع مجموعة من رفاقه وعد واحدا من مؤسسيه⁽⁹⁾، و تولى حفظ أسرار و أوراقه، ثم انتخب عضوا في لجنته التنفيذية و عين كاتباً عاماً مساعداً فيها بالعربية، و تولى لفترة إدارة مجلة "الفجر" الحزبية كما كان ينشر فيها و في غيرها مقالا يوميا في السياسة الخارجية⁽¹⁰⁾، و كان هدفه هو إثارة الضمائر الوطنية و تهيئتها لرفض النظام الاستعماري، و قد دعم مقالاته هذه بنشره لكتاب "نضال إيرلندا" و فيه يروي قصة كفاح إيرلندا ضد الإنجليز⁽¹¹⁾.

و في سنة 1925 أبعدته السلطات الفرنسية بتونس إلى الجزائر، فاستقر بالعاصمة عند أقربائه، و قد جرب التجارة و لم يفلح فيها، بعدها اتصل بشخصيات سياسية و دينية، و أخذ ينشر في الصحف مقالات عن الإصلاح و السياسة و يخطب في الاجتماعات، و في 1926 انخرط في "نادي الترتي"⁽¹²⁾ و ساهم في تنشيط الجمعيات الخيرية بالعاصمة⁽¹³⁾، و ما إن حلت سنة 1931 حتى كان المدني رفقة "عبد الحميد بن باديس"⁽¹⁴⁾ قد أسسا جمعية العلماء المسلمين، و كان المدني من حرر قانونها الأساسي و برنامج نشاطها، و منذ ذلك الوقت عمل مسؤولا عن مجلة "الشهاب"⁽¹⁵⁾ و أصبح المعلق السياسي على أخبارها و أحد محرريها الدائمين تحت اسم مستعار هو (المنصور)⁽¹⁶⁾، و فيما بعد و تحت رئاسة "البشير الإبراهيمي"⁽¹⁷⁾ أصبح أمينا عاما للجمعية ورئيس تحرير لسانها الرسمي "البصائر"، و كان مكلف بصفة خاصة بالسياسة الخارجية⁽¹⁸⁾.

و لعل هذا ما جعل جهة التحرير الوطني فور انضمام المدني إلى الثورة سنة 1956، تعيينه عضوا في لجنة

نسبه و مولده: هو أحمد توفيق بن محمد بن أحمد المدني القبي الغرناطي من السادة الأشراف، حسب وثيقة لا تزال محفوظة في وثائق العائلة، ولد أبوه بمدينة الجزائر سنة 1852، درس بالجامع الكبير و كان جده أمين الأمناء - أي شيخ بلدية مدينة الجزائر-، ثم اعترم الهجرة مع والده إلى تونس عندما اشتد الاضطهاد الفرنسي بمدينة الجزائر، و استقرا حيناً بجرجرة، و لما وقعت ثورة 1870 شارك فيها و تعارفا يومئذ مع جده لأمه "الشيخ عمر بوبزار"⁽²⁾ الذي بدوره كان قاصدا تونس⁽³⁾، و في تونس ولد أحمد توفيق المدني في 01 نوفمبر 1898⁽⁴⁾.

تعلمه و ثقافته: تربى أحمد توفيق المدني من أسرة ثرية، و كانت أمه تعلمه القرآن و الحديث و الأخلاق، و كان أبوه يصحبه معه للصلاة و يحكي له عن جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر، دخل الكتاب و هو في الخامسة من عمره، و في سن التاسعة بدأ يقرأ الصحف و يجادل الطلاب في قضايا الساعة، و لما بلغ العاشرة انتقل إلى المدرسة القرآنية فتلقى عن شيوخها مبادئ العربية و علم الدين و الحساب و الطبيعة و مبادئ اللغة الفرنسية⁽⁵⁾، و في سنة 1913 انتقل إلى الدراسة في جامع الزيتونة و الخلدونية و الصادقية، فدرس إلى جانب العلوم اللغوية و الدينية، التاريخ و الفلسفة و الاجتماع، و أخذ عن شيوخ كثيرين بهذه المؤسسات⁽⁶⁾.

نضاله السياسي: بدأ المدني نشاطه السياسي و هو صغير في المراحل الأولى لدراسته بالكتاب، إذ بدأ يظهر اهتمامه المبكر بالكفاح المناهض للاستعمار، و منذ 1915 بدأ يسجل نشاطا ملحوظا في لجنة صغار الثوار التونسيين التي ترى بأن الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق استقلال تونس، ثم بقية بلدان المغرب العربي ثم العالم الإسلامي، و بسبب هذا النشاط اعتقل و سجن في تونس، و اتهم بالمساس بالسيادة الوطنية⁽⁷⁾، و بعد نهاية الحرب العالمية الأولى و التوقيع على الهدنة في 11 نوفمبر 1918، و كان قد مر أربع سنوات من السجن على المدني، انتهز محاميه ذو الأصول الجزائرية

و أن الشعب الجزائري لا مقومات له⁽²⁴⁾. و الحقيقة أن هذا الكتاب أوجد مفاهيم كانت غائبة أو بالأحرى مغيبة عن أذهان الجزائريين مثل "الوطن" و "الأمة الجزائرية" و "الشعب"، و هذا باعتراف المؤرخ الفرنسي "شارل روبير أجرون"⁽²⁵⁾. و هذا ما جعل "بن باديس" يثني على المدني وكتب في الشهاب أنه لا يعتبر "كاتب الوطنين" صديق نبيل فقط، بل رفيق كفاح و مساعد ثمين أساسا⁽²⁶⁾.

ثم أتبع المدني "كتاب الجزائر" بكتاب آخر في تاريخ الجزائر، هذه المرة خاص بالعهد العثماني وهو كتاب "محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791"، كما أنه لم ينس مجال الأدب فألف رواية ممسرحة وهي "حنبل"، التي عرضت في مسرح الجزائر سنة 1948، و هي تروي ملحمة بطل قرطاجة و نهايته. و واصل المدني تأليفه في التاريخ فصدرت له عدة كتب وهي: "المسلمون في صقلية و في جنوب إيطاليا" و "هذه هي الجزائر"، وكما يوحى لنا من عنوانه أراد به المدني أن يعرف الشعوب العربية على الجزائر وتاريخها وكفاحها، وذلك عقب وصوله إلى القاهرة فنشر الكتاب سنة 1956، ثم ألف "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792"⁽²⁷⁾.

كما ولج المدني ميدان تحقيق المخطوط مع ما يتطلبه هذا المجال من صعوبات و دراية واسعة بأحداثه، ويذكر المدني أنه قدمه إليه "محمود الشريف الزهار" نقيب الأشراف الأخير، بعد أن وعده بأن ينشره في الوقت المناسب⁽²⁸⁾. و أخيرا تفرغ المدني لكتابة مذكراته وجعلها في ثلاثة أجزاء أطلق عليها إسم "حياة كفاح"، و أتبعها ب "رد أديب على حملة أكاذب" وهو الجزء الرابع المتمم لمذكراته، و فيه إفادات غير منشورة⁽²⁹⁾.

موقفه من المصادر الخاصة بالعهد العثماني:

إن الدافع الأكبر الذي جعل المدني يخوض مجال الكتابة في التاريخ، خاصة العهد العثماني منه هو موقفه من مصادر تلك الحقبة التاريخية خصوصا

القاهرة من 1956 إلى 1958 وكان مسؤولا عن المكتب الخاص المكلف بالعلاقات العربية بالقاهرة، و مع تشكيل أول حكومة جزائرية مؤقتة برئاسة "فرحات عباس"، عين وزيرا للشؤون الثقافية مكلفا بالعلاقات مع الدول العربية و بالتكفل ماديا بالطلبة الجزائريين المقيمين في مصر، و عضوا دائما في الجامعة العربية⁽¹⁹⁾. و بعد الاستقلال عين سفيراً فوق العادة مفوضاً في ثلاث عواصم: بغداد وطهران وأنقرة، ثم عين وزيرا للشؤون الدينية سنة 1969، ثم عاد مرة أخرى للنشاط الدبلوماسي سنة 1970 ليعين سفيراً بعاصمة باكستان، و سنة 1972 التحق بالمركز الوطني للدراسات التاريخية⁽²⁰⁾.

مؤلفاته: خاض أحمد توفيق المدني عدة ميادين في مجال الكتابة و التأليف، فكتب في السياسة و في الأدب و في التاريخ، وقد بدأ الكتابة في سن مبكرة فصدر له كتاب "نضال إيرلندا" سنة 1923 و هو لم يتجاوز الخامسة و العشرين من عمره، سنتين فيما بعد- أي سنة 1925- نشر "تقويم المنصور"⁽²¹⁾.

وبداية من سنة 1931 بدأ الكتابة في تاريخ الجزائر، فألف "كتاب الجزائر" وجعل عنوانه الكامل: "كتاب الجزائر تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية و السياسية وعناصر سكانها و مدنها و نظامها و قوانينها و مجالسها و حالتها الاقتصادية و العلمية و الاجتماعية"، وقد حمل الكتاب شعار جمعية العلماء المسلمين: "الإسلام ديننا و الجزائر وطننا و العربية لغتنا"⁽²²⁾، وفي ذلك رسالة واضحة للسلطات الفرنسية و للشعب الجزائري أيضا.

وكان ثمرة أربع سنوات من جمع المادة و ترتيبها و سنة في التحرير، أرخ فيها المدني لتاريخ الجزائر من أقدم عصورها إلى سنة 1930⁽²³⁾، وهي السنة التي احتفلت فيها فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلالها للجزائر، وكان كتاب الجزائر بصدوره خلال هذا الفترة كان كردة فعل ثقافية لما قامت فرنسا بترويجها خلال هذه الاحتفالات، بأنه لم يكن هناك وجود للجزائر قبل مجيئ الفرنسيين

خدمة للتاريخ، ولا يقولون إلا الحق إرضاء للحق فينصفون العصور وينصفون الناس بذكر ما لهم و ما عليهم دون تدليس أو تلبيس⁽³³⁾.

و للأمانة التاريخية و للتحليل نقول أن هذا ليس رأي المدني وحده وإن كان من أوائل من فهموا طبيعة الكتابات الأجنبية حول العهد العثماني بالجزائر، فهذا "ناصر الدين سعيدوني" رائد الدراسات العثمانية الأكاديمية بالجزائر كتب عن مؤلفات الفرنسيين الذين اهتموا بتاريخ الجزائر العثماني ما يلي: "إن أغلب الدراسات التاريخية المتعلقة بالجزائر العثمانية، والتي تمت على يد كتاب فرنسيين، تعتبر دراسات مغرضة، فهي تهدف إلى خدمة الاستعمار الفرنسي في مجال التاريخ، بحيث أخضعت منهجية التاريخ ومتطلبات البحث إلى واقع الاحتلال و مرامي السياسة الاستعمارية، مما يحط بالقيمة العلمية لمثل هذه الدراسات و ينزل بها في بعض الأحيان إلى مستوى الدعاية المغرضة"⁽³⁴⁾.

هذه الأسباب التي استخلصها "سعيدوني" في الأسباب السياسية كان المدني قد تحدث عنها وزاد عليها الأسباب الدينية منذ ثلاثينات القرن الماضي حين ألف "محمد عثمان باشا" حيث قال: "فأما المصادر الأوروبية...لم تخل ن التأثير بالدعايات الدينية و السياسية الواسعة النطاق التي انتشرت في أوروبا ضد الإسلام عامة، وضد هذه الأقطار بصفة أخص، لفائدة الكنيسة أو لفائدة الدول الطامعة في امتلاك البلاد"⁽³⁵⁾. و قد أدت هذه النظرة المغرضة بالكتاب الفرنسيين إلى تجاهل الوجود التاريخي للشعب الجزائري، واعتبار الجزائر منطقة فراغ حضاري تفتقر إلى وجود شعب متماسك وأمة متكاملة، فهذه النظرة لم تكن الجزائر تعدو عن كونها منطقة جغرافية يتعاقب عليها الحكام و تنتقل عبرها القبائل المتنازعة والعشائر والجماعات المتناطحة التي لا تخضع إلا بالقوة⁽³⁶⁾.

و لكن هذا لا يعني أن المؤرخين لم يستفيدوا من هذه المؤلفات ولم يستعينوا بها، إذ تبقى مرجعية لكل

الأجنبية منها، فقد حز في نفسه ما كان يطالعه من مؤلفات فرنسية و كتابات و دراسات لا تمت للحقيقة التاريخية بصلة، و جعلته يدرك ما مس هذه الفترة المهمة من تاريخ الجزائر من ظلم و حقد عميقين، وهذا ما فتى المدني يعبر عنه في مواضع كثيرة من كتاباته. فقد عبر عن مؤلفه "محمد عثمان باشا" بأن قال عنه أنه: "أول كتاب أمارت اللثام عن حقيقة التواجد العثماني التركي بهذه البلاد، نسف تلك الخرافات والأكاذيب التي اختلقها الإستعمار من أجل تشويه هذا الوجود، و بينت فكري بكل صراحة و جلاء عن ذلك العهد المظلم، فكان ذلك الكتاب مفاجأة للناس، و منارا للباحثين، و لطمة قاسية في وجه الاستعمار"⁽³⁰⁾.

هذا الكتاب الذي فضل أن يبدأ بما يلي: "لا أعرف أن عصرا من عصور التاريخ في بقعة من بقاع الأرض ناله من الحيف و الجور، ومن تلطيخ السمعة و اإتهان الكرامة ما نال من ذلك حكم الأتراك العثمانيين بأرض الجزائر"⁽³¹⁾، و لو أن في قول المدني هذا شيء من المبالغة، إلا أنه استطاع أن يعبر عنما احتوته هذه الكتابات الأجنبية من مغالطات. أما في تقديمه ل: "مذكرات أحمد الشريف الزهار" فذكر أنه وضع: "وثيقة جديدة، صادقة، في سجل التاريخ العثماني الطويل، بهذه البلاد الجزائرية، ذلك العهد الذي ظلم كثيرا، وأعطانا الاستعمار وأعوان الاستعمار عنه صورة قائمة، بشعة، لا تمت إلى الحقيقة التاريخية بسبب"⁽³²⁾.

ثم إن المدني فصل أكثر في هذه المسألة فقال: "إنك لتقرأ ما كتبه عن تلك الحقبة من تاريخ هذا الوطن كتاب الإفرنج و من نحا نحوهم من كتاب التاريخ، فيخيل إليك أن القطر الجزائري بأسره ما كان خلال تلك الأيام الطويلة إلا مغارة من مغاور السفاكين، و ملجأ يركن إليه السفاحون من لصوص البر والبحر. ويخيل إليك مع ذلك أن هذا القطر كان موطن المحن و البلايا، و مرتع المظالم و انتهاك الحرمات...، ثم إنك قلما تجد كتبا نزيهة لمؤلفين صادقين لا يكتبون في التاريخ إلا

عروج إلا زعيم عصابة، ليس إلا، وإني لا أعرف حكما مخالفا للحقيقة كمثل هذا الحكم، فإن بربروس الأول (عروج) ما كان إلا جنديا من جنود الإسلام المغاوير،...⁽⁴⁰⁾.

هذا عن المصادر الأجنبية، أما عن موقفه من المصادر العربية، فيرى المدني أنها أقل وأندر من المصادر الأوروبية، وأنه مما لا ريب فيه على حد تعبيره "أن المؤرخين المسلمين الجزائريين قد صانوا في بطون الأسفار حوادث هذا العهد وأحاديثه مدونة بقلم نزيه. إلا أن الحروب والأحوال التي توالى بعد ذلك على هذا القطر قد عملت عملها المدمر، و ما أبقّت عليه يد الحرب، نالته يد الاختلاس. فأفلست المكتبة العربية من هذه الناحية إفلاسا يكاد يكون تاما"⁽⁴¹⁾.

يبدو أن المدني طغت عليه الذاتية و جانب الموضوعية ولم يكن حياديا فيما يتعلق بالمصادر العربية، فقد أصدر حكما قطعيا بزاهتها، رغم أنه ذكر أنها ضاعت نتيجة الحرب أو السرقة، أي أنه لم يطلع عليها- وهذا ما أكدده وسوف نذكره فيم بعد- هذا من جهة، و منجهة ثانية حتى المصادر العربية الخاصة بالعهد العثماني في الجزائر منها من هم أصحابها ضد السياسات العثمانية، ومنهم من حتى ضد التواجد العثماني بالبلاد، وليس قطعاً أن كل الذين كتبوا عن العهد العثماني كانوا منصفين له سواء بالسلب أو الإيجاب.

كما ذكر المدني أنه رغم السنوات العشر التي قضاه في البحث و التنقيب عن المصادر العربية، إلا أنه لم يعثر إلا على بعض الرسائل المقتضبة وعلى قسم من مذكرات نقيب أشرف الجزائر، هذه المذكرات التي كادت أن تقع في يد "ميرانت" مدير الأمور الأهلية بالولاية العامة الجزائر، "فميرانت" كان يلج على "محمود الشريف الزهار" أن يسلمها له ليطلع عليها، إلا أن نقيب الأشرف قرر في الأخير أن يقدمها للمدني. كما اطلع هذا الأخير على كتاب "التحفة المرضية في الدولة البكداشية"، و اعتبرها مؤلف بديع في صورة المقامات

الباحثين في التاريخ العثماني مع التمهيص و مقارنتها بوثائق تلك الفترة، و أحمد توفيق المدني لم يشد عن هذه القاعدة إذ اعتمد عليها و جعل منها مادته الأولية، و مثال ذلك أن في كتابه "محمد عثمان باشا" خصص القسم الثالث منه لمقتطفات من "دفتر التشريعات" الرسمي، سجلت في عهد "عثمان باشا"، هذا الدفتر قام بترجمته من العربية و العثمانية "دوفولكس"⁽³⁷⁾ حافظ الأوراق العربية بخزينة أملاك الدولة، وقد ساعده في ترجمته "محمد بن مصطفى" وهو موظف بتلك الإدارة.

و قد عاب المدني على طريقة "دوفولكس" في التعامل مع هذه الوثائق دون أن ينسى أن يثني على صنيعه بحفظ هذه الوثائق بقوله: "و لقد تصرف مسيو دوفولكس في تبويب الكتاب تصرفا أزال به التسلسل التاريخي فبدل أن يترجمه من أوله إلى آخره كما هو مكتوب عمد إلى تبويبه و تقسيمه حسب المواضيع فالقسم الأول للحوادث التاريخية وفيه ما وقع تسجيله من حوادث الحرب مع المغرب الأقصى و مع تونس و بعض الوقائع البحرية. و القسم الثاني يتعلق بالجند و الإدارة و الأسطول وفيه أقسام ثانوية كثيرة، فهذا التبويب قد أفقد الكتاب صبغته الأولى، ولو أن مسيو دوفولكس نقله إلى الفرنسية كما هو، محافظا على سلسلته التاريخية ثم ذيله بفهرس للمواضيع حسب التقسيم الذي ارتآه لكان عمله أفيد و فائده أجزل. لكنه اجتهد و لكل مجتهد نصيب، ولا يسعنا إلا أن نعترف له بالفضل الجزيل في حفظه هذا الأثر النفيس و العناية بترجمته"⁽³⁸⁾.

و علاوة على هذا، فقد خصص المدني أيضا القسم الرابع والأخير من نفس الكتاب، لمقتطفات من مذكرات "فونتور دي بارادي" المتعلقة بهذا العصر، وقد علق على هذه المذكرات بقوله عنها "المذكرات القيمة."⁽³⁹⁾

كما كان له موقف ايجابي من المؤرخ الكبير على حد تعبيره "دي قرامون" و كتابه "تاريخ الجزائر تحت حكم الأتراك"، وذلك عندما تحدث بكل إنصاف و تقدير عن "عروج" قائلا: "إن الكثير من المؤرخين لا يرون في

في سيرة الباشا "محمد بكداش"⁽⁴²⁾ و ما قيل فيه من مدائح الشعراء⁽⁴³⁾.

إذن يتضح لنا مما سبق أن المدني لم يكن على اطلاع واسع بالمصادر العربية، إلا أنه إذا عدنا إلى السياق التاريخي لتلك الفترة - وهي سنة 1937 السنة التي صدر فيها كتاب "محمد عثمان باشا" - نجد أنه قبل هذه الفترة تم نشر عدة مصادر عربية خاصة بالعهد العثماني منها: "الرحلة الورثيانية" الموسومة بـ "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار" لصاحبها "الحسين بن محمد الورثيلاني" و التي قام بتحقيقها "محمد بن أبي شنب" و نشرت سنة 1908، كما لدينا أيضا كتاب "الحلل السندسية في شأن وهران و الجزيرة الأندلسية" لـ "ابو راس الناصري المعسكري" الذي نشر 1903.

منهاج المدني في التأريخ للعهد العثماني:

لقد خص المدني العهد العثماني الحيز الأكبر من دراساته التاريخية، فألف كما سبق الذكر "محمد عثمان باشا" و "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا" و حقق "مذكرات أحمد الشريف الزهار"، كما خصص فصولا (أقسامًا) خاصة بالعهد العثماني في كل من كتابيه الآخرين "كتاب الجزائر" و "هذه هي الجزائر". ولعل اهتمام المدني بالعهد العثماني راجع إلى كونه منذ شبابه كان متحمسا للدفاع عن نظام الخلافة العثمانية، وناضل من أجلها و ترأس لجنتها التونسية سنة 1922 حين إعلان الجمهورية التركية⁽⁴⁴⁾. و لهذا أخذ على عاتقه التأريخ للفترة العثمانية ببلده الجزائر، وإذا كانت كتابة التاريخ حديثا تعتمد على طرق أكاديمية يلتزم بها المؤرخ، لتكون دراسته موضوعية و قريبة إلى الحادثة التاريخية المراد دراستها، إلا أن المدني رغم أنه ليس مؤرخا أكاديميا، إلا أنه أوجد و ألزم نفسه بضوابط لا يعيد عنها في كتابة التاريخ، هذه الضوابط مبنية أساسا على الأمانة و تحري الصدق.

وقد أوجز المدني طريقته في كتابة التاريخ عندما قال في كتابه "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا": "أنني خلال كتابي هذا أضع روعي و إحساسي و ما تجيش به نفسي بعد الإيمان و الاقتناع ضمن سير الحوادث، فالمؤرخ الذي لا يضع كل ذلك ضمن تاريخه لا يبين وجهة نظره بكل أمانة و بكل نزاهة عن الحوادث وعن الأشخاص كان في تقديره من رواة القصص لا من المؤرخين"⁽⁴⁵⁾. ثم يضيف قائلا: "ستراني أسلك هذا المسلك خلال هذا الكتاب، أقول الحق ما اعتقدت أنه الحق، وأجد البطولة في شخص الأبطال، سواء أكانوا من شيعتي أم من عدوي، وأسعي الأشياء بأسمائها المحددة، فأقول عن الخائن أنه خائن، وأصف النذل بأنه النذل..."⁽⁴⁶⁾.

وبعد إبعاد العاطفة و التعهد بالتزام الأمانة و الحيادية، يوضح لنا المدني كيف يبدأ في الكتابة، وإذا أخذنا بداية كتابته لـ: "كتاب الجزائر" كنموذج باعتباره أول كتاب تاريخي له عن تاريخ الجزائر نجده يقول: "اعتكفت في مكتبي، و حولي الأوراق، و الإحصاءات و الأضياف و كتب التاريخ، و أخذت أمحص ذلك وأنزع عنه ثياب الاستعمار المدلسة. و أزيح أكاذيبه الفاضحة وأكتب الحقيقة الناصعة كما يجب أن تكتب"⁽⁴⁷⁾.

و كان المدني يولي اهتماما كبيرا للتحليل وإصدار الأحكام إذا ما ارتبطت بحقائق بينة مع ما في ذلك من امكانية المبالغة أو التقصير، فالتاريخ في نظره ما هو: "إلا عرض و تحليل، و تحليل و حكم، فالمؤرخ الحق إنما هو حاكم نزيه، حر الضمير، يدرس الوثائق و المستندات، و يستخرج الحقائق من بين النصوص، و يستمع إلى ما يقوله هؤلاء و ما يقوله هؤلاء، ثم ينظر الملابس، و يدرس المحيط، فإذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعا؛ أصدر حكمه عادلا، لا عاطفة و لا رياء و لا محاباة"⁽⁴⁸⁾.

نستنتج من خلال ما سبق أن أحمد توفيق المدني كان في بداية كل دراسة تاريخية، يجمع المادة التاريخية المصدرية منها خصوصا سواء محلية أو أجنبية، ثم يقوم بترتيبها و مقارنتها ثم تحليلها و إصدار الحكم في

"استانبول"⁽⁵¹⁾، و الأرجح أن هذا حدث عندما كان سفيرا للجزائر في أنقرة. و يجب أن لا ننسى أن المدني اشتغل في رئاسة الجمهورية بصفته وزيرا مفوضا مكلفا بقسم الوثائق العثمانية المتعلقة بتاريخ الجزائر، وقد أتى من خزائن "استانبول" بصور ما يزيد عن أربعة آلاف وثيقة⁽⁵²⁾.

إن هذا النهج الذي انتهجه المدني في كتاباته التاريخية أكسبها أهمية كبيرة، رغم أنها ينقصها بعض التقنيات الأكاديمية كالتمهيش لمصدر المعلومة، واستخدامه مصطلحات لغير عصرها مثل ما أورده في "كتاب الجزائر" من كلمات "مجلس الوزراء" حين ذكر أنه "كان للبasha في مدينة الجزائر مجلس وزراء"، وزاد عليه فاستخدم مصطلح "المجلس الحكومي" للتعبير عن المجلس الذي كان يضم مستشاري البasha⁽⁵³⁾، وهنا نلمس تأثير الترجمة من لغة إلى لغة على المصطلحات التاريخية.

كما أن دراساته هذه حول العهد العثماني لم تخل من الأخطاء التاريخية، و نقدها جميعا يحتاج إلى دراسة أخرى، و لهذا سوف نتطرق إلى بعضها مثل ما ذكره في "هذه هي الجزائر" من أن السلطان "سليمان القانوني" هو من قبل ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية⁽⁵⁴⁾، إلا أنه استدرك الأمر في كل من تقديمه ل "مذكرات أحمد شريف الزهار" و "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا" حين ذكر أن ذلك حدث على عهد "سليم الأول"⁽⁵⁵⁾.

إلا أنه أتقن تحقيق "مذكرات أحمد الشريف الزهار" وأحسن التعامل مع المخطوط، إذ همش لكل ما يحتاج إلى تمهيش، و أحال لكل ما يحتاج إلى تعريف، ودقق في كل موضع حتى أنه أضاف فيها أحداثا لم يذكرها "الزهار" مع الإشارة إلى ذلك، زيادة على ذلك استنتج المدني أن المذكرات فقد منها قسمين: القسم الأول في البداية و القسم الثاني في النهاية، و يرى المدني أنه الأهم وقد أخذه فيما علم المدني السيد "لوسيان" مدير الأمور الأهلية سابقا، وهو قسم يتعلق بحوادث

الأخير، فالمؤرخ في نظر المدني جمع ميزتين فهو الكيمياء في مخبره يدرس و يمحس، و كالقاضي في محكمته يستمع ثم يصدر حكمه النهائي.

و الحقيقة أن إصدار الأحكام لا يتأتى إلا بالعودة إلى الوثائق الأرشيفية، ولهذا أولى المدني الاهتمام الأكبر للأرشيف وكان يدرك أهميته التي لا يتجلى التاريخ إلا به، حتى أنه قال: "تاريخ الدولة الجزائرية لم يدرس بعد، و لا يمكن أن يدرس الدراسة الحقة، إلا بعد تعريب الوثائق الطائفة الموجودة الآن في خزائن الدولة التركية، من جهة، و بعد ترجمة كامل "دفتر التشريعات" الجزائري المكتوب باللغة التركية، والذي هو من بين الوثائق المهمة العديدة، التي يجب تعريبها، والتي أخذها الفرنسيون معهم عند انسحابهم النهائي من أرض الجزائر، فهذا العمل العظيم الشاق إنما هو عمل دولة لا عمل أفراد، يجب أن تتولاه لجنة مختصة من الأمناء الثقافت، و بعد ذلك – وبالمقابلة مع النصوص الغربية والتي كتب أغلبها لغاية استعمارية مسيحية لا غبار عليها- يمكن أن نكتب التاريخ الحق لهذه الفترة من تاريخنا دون تجن أو محاباة"⁽⁴⁹⁾.

لقد تعمدت أن أنقل كامل هذه الفقرة من كتاب "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، لأنها استوقفتني كثيرا، فالشعوب التي لا تقرأ تاريخها من أرشيفها محكوم عليها مسبقا بالتخلف ولا أمل لها في نهضة شاملة، و يكفي أن نستشهد بالأوروبيين الذين فهموا منذ سبعة قرون على أقل تقدير أنه لا نهضة بدون إحياء التراث القديم "الإغريقي" منه و "الروماني"، وما حز في نفسي أكثر هو أنه وبعد مرور أربعة و أربعين سنة من قول المدني هذا – باعتبار أن كتاب "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا" صدر سنة 1974- لم يتغير من الأمر شيئا.

و المدني نفسه استعان بالوثائق الأرشيفية في كتاباته التاريخية، خاصة كتاب "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا" إذ اعتمد فيه على وثائق و مستندات عثر عليها في كل من: "مديريد" و "توبكابي"⁽⁵⁰⁾ و

على رجال القبائل الجزائرية ، ومن جهة أخرى كان معتمدا على فكرة الجامعة الإسلامية التي تمثلها الخلافة الإسلامية.⁽⁵⁹⁾ ، ولو أن فكرة الجامعة الإسلامية لم تظهر إلا مع نهاية القرن التاسع عشر، ولعلا المدني أراد أن يعبر عن فكرة الرابطة الإسلامية بين الجزائر و الدولة العثمانية.

و يضيف المدني أن الحكم التركي يحسب له أنه صان الأرض الجزائرية عندما اجتاحتها الإسبان، و أن هذه الأرض لما توحدت و انتظمتنداع صيتها و أصبحت شهرتها عالمية، و لعل أهم ما في الأمر أن الجزائر أصبح لديها كيان مستقل، تقبل الممثلين السياسيين و تمضي المعاهدات و تعلن الحروب و تعقد الصلح و تتفاوض بصفة رسمية مع كل الدول⁽⁶⁰⁾.

يبدو أن المدني من المؤيدين و المفتنعين بأن الجزائر كانت تتمتع بالاستقلال التام خلال العهد التركي و أن التبعية لم تكن أكثر من إسمية، حتى أنه في كتاب "هذه هي الجزائر" سعى مرحلة الحقبة العثمانية ب: "الجمهورية الجزائرية العثمانية" و قد علق على ذلك بقوله: "لو كان هذا التعبير من بنات أفكاري، لا اهتمني البعض بالمبالغة و الإسراف في إطلاق اسم على غير مسمى. لكن ما رأي القارئ الكريم إذ علم أن هذا الاسم قد استعمله سفير من سفراء فرنسا في القرن الثامن عشر، و عالم باحث من جلة علمائها إذ ألف بعد تمثيل دولته في لدى الجزائر كتابا قيما أسماه: الجمهورية الجزائرية في القرن الثامن عشر؟ ذلك هو مسيو "فونتور دي بارادي"⁽⁶¹⁾.

و من "الجمهورية" إلى "الدولة" يواصل المدني تأكيدده على الإستقلال الكلي للجزائر خلال العهد العثماني فقال: ""نشأت الدولة الجزائرية" التي تعترف بخلافة سلاطين إستامبول، وأخذت توسع استقلالها شيئا فشيئا، إلى أن لم تبق بينها و بين الخليفة العثماني سوى الروابط الأدبية الشكلية..."⁽⁶²⁾.

الاحتلال وما صاحبها من قتل و ظلم، ثم حوادث المقاومة الشعبية، و أخيرا ذكر عوائد أهل مدينة الجزائر و ذكر علماء القطار و أدبائه⁽⁵⁶⁾.

موقف المدني من التواجد العثماني بالجزائر:

من خلال ما سبق نستطيع أن نستخلص أن المدني لم يكن ضد التواجد العثماني بالجزائر، ولكن نجده في أول كتاب له "كتاب الجزائر" و عند تخصيصه فصلا للفترة العثمانية فيه- هو الفصل الخامس عشر- لم يحسن التعبير عن التواجد العثماني بالجزائر، و سماه "احتلالا" و مثال ذلك ذكره: "فلا تكاد ترى أثناء ذلك الاحتلال من ثورات دموية كبيرة..."⁽⁵⁷⁾. الأكيد أن هذا التعبير لم يكن عن قناعة شخصية و إن كانت كذلك فقد غيرها فيما بعد، و لعل ذلك من تأثير الترجمة، خاصة أن "كتاب الجزائر" يعتبر أول تجربة للمدني في مجال التأريخ للعهد العثماني، و الغالب أنه لم يكن على اطلاع واسع بهذا العهد ولم يكن قد تعمق في دراسته.

و الدليل على أن المدني قد غير من مفهومه للتواجد العثماني بالجزائر، هي مؤلفاته اللاحقة التي لم يذكر فيها مصطلح "احتلال" بل على النقيض من ذلك، إذ نجده في مؤلفه الذي تلى "كتاب الجزائر" كتاب "محمد عثمان باشا"، يجتهد في إقناع القارئ بأن الجزائر على العهد العثماني شهدت أزهى عصورها، و أن البلاد الجزائرية من الحدود التونسية إلى التخم المراكشية و من ساحل الروم إلى ما وراء الزيبان، قد توحدت إدارتها و خضعت لسلطة واحدة، و بالتالي تكونت الوحدة الجزائرية⁽⁵⁸⁾.

و يؤكد المدني ذلك في "مذكرات أمحمد الشريف الزهار" التي نشرت له لاحقا، وكأنه يريد أن يصحح زلته الأولى حيث يذكر صراحة أن: "لم يكن الأتراك مستعمرين؛ لأنهم لم يملكوا (كذا) أرضا...، و لم يكونوا (كذا) محتلين؛ لأن جيشهم لم يكن ذا عدد يمكنهم أصلا من احتلال جزء من البلاد فضلا عن مجموعتها... فالحقيقة أن الوجود العثماني كان معتمدا من جهة

مختلف الجهات بالبلاد وكانت تخمد بشراسة و قساوة. هذه التهم إن محصناها تمحيصا تاريخيا علميا وجدناها يقول المدني كلها جائرة وإن كانت أصولها كلها صحيحة و البيان: "أن هؤلاء المؤرخين لا يكتبون تاريخ هذا العصر من حياة الجزائر إلا بصفة محلية موضعية ضاربين صفحا عن بقية أنحاء العالم و ما كان يجري فيها أثناء وقوع الحوادث الجزائرية"⁽⁶⁷⁾.

و معنى هذا أن هؤلاء المؤرخين عندما سجلوا كل ما كان يحدث بالجزائر في الفترة العثمانية من ظلم الولاة و الدايات الأتراك، لم يصوروا إلى جانب ذلك مظالم الملوك و النبلاء في أوروبا عامة، ولو أنهم صوروا أعمال الإسبان مع اليهود و المسلمين، إذا لرأيت الحكم التركي بهذه البلاد خلال تلك القرون جنة، و لا اعتبرت ملجأ الحرية و موطن العدل. أما فيما يتعلق بالقتل السياسي فإنه كان يقع على الأفراد لا على الجماعات، وذلك بخلاف القتل السياسي الذي كان يقع في أوروبا، و ما مقصلة الثورة الفرنسية إلا خير دليل على ذلك و التي كانت تشغل أشهرها على التوالي، و تكاد تعمل الليل و النهار في قطع رؤوس ضحايا الثورة الأبرياء، و يضيف المدني بأن مذابح "هتلر" بألمانيا و "التروتسكيين" بروسيا ليست بالبعيدة عنا"⁽⁶⁸⁾.

و قد لخص المدني موقفه الإيجابي هذا و النابع عن قناعة من التواجد العثماني بالجزائر، في "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا" حيث قال: "أنني لست متعصبا للأتراك، و لا أنا متعصب ضدهم، حسبما جرت به تقاليد الكتاب العرب في العصر الحديث، إنما قصارى أمري معهم أنني أذكر الدور البطولي الذي قاموا به خلال عصر الانحلال و التدهور و الغزو المسيحي في قيادة الشعب و شد أزره ضد العدو المهاجم، و ما اضطلوعوا به تحقيقا لرغبة الشعب، من تأسيس الدولة بمعناها الوطني الحديث، و مقاومة المهاجم إلى أن أبعد نهائيا عن أرض الوطن، و جمع الوحدة الوطنية الجزائرية الإسلامية ضمن دولة واحدة، و حول عاصمة واحدة... وإذا ما نحن ذكرنا

و الحقيقة أن الجزائر وإن كانت أيلة عثمانية إلا أنها كانت تتمتع باستقلالية كبيرة في حكمها و سلطانها داخليا و خارجيا خصوصا على عهد الدايات (1671-1830)، و أصبح النظام السائد بالجزائر شبيها بالنظام الجمهوري الحديث، و أصبح الداي بإمكانه أن يمارس سلطته و إدارة البلاد دون قيد أو شرط و لا حتى تدخل من السلطان العثماني"⁽⁶³⁾. و ما يدعم هذا القول هو منع الداي "علي شاوش" نزول "الباشا إبراهيم" الذي كانت له أحقية تمثيل الباب العالي لدى ديوان الجزائر، من النزول بمقرى الجزائر بحجة تسببه في إثارة الفتن و إحداث القلاقل، ومنه تم إلغاء منصب الباشا بداية من 1711، و بذلك لم يعد دايات الجزائر ملزمين إزاء الدولة العثمانية إلا بالخطبة و ضرب السكة باسم السلطان"⁽⁶⁴⁾.

و مع ذلك بقيت الجزائر ملتزمة بإرسال قطع أسطولها و جماعة من متطوعها، للمشاركة في الجهاد تحت راية الخليفة في حالة وقوع حرب خارجية، أما ما عدا ذلك يقول المدني: "فالدولة الجزائرية حرة، مستقلة، تحارب من حاربها، و تسالم من سالمها، و تعقد المعاهدات الحربية و السياسية و التجارية مع باقي دول العالم..."⁽⁶⁵⁾. و لعل أحسن مثال على ذلك اتفاق الهدنة الذي تم بين فرنسا و الجزائر سنة 1800 والذي تحول فيما بعد إلى صلح في وقت كانت فيه مدافع الفرنسيين موجهة إلى العثمانيين في مصر و الشام"⁽⁶⁶⁾.

هذا و إن كان المدني يقر باستقلالية الجزائر عن الدولة العثمانية، إلا أنه لم يتوان عن الدفاع عن العثمانيين و الأتراك الذين كانوا يحكمون الجزائر و لو شكليا باسم الدولة العثمانية، و يرد على ادعاءات المؤرخين الأوروبيين الذين طالما اعتبروا أن العهد التركي بالجزائر هو عصر ظلم و إرهاب، و عهد قرصنة فظيعة في البحار لم تكن البلاد آخذة فيه بأسباب التقدم و العمران، و كانت الأنفس تزهق خلاله لمجرد الشهوات و الظنون، و أن "الحكومة" كانت مستبدة يرضخ الشعب لأحكامها و ليس له قول و لا رأي، و أن الثورات كانت تقع في

أحدى أوجه الحرب ضد الدول المسيحية وفي طليعتها إسبانيا. وعملت المصادر الأوروبية إلى تضخيم حجم "القرصنة البربرية" و النتائج المتأتية منها، و لعبت كتابات رجال الدين على وجه الخصوص دورا كبيرا في ترسيم صورة الجزائر كأفة للعالم المسيحي⁽⁷⁴⁾.

و لهذا عمل المدني على توضيح قضية القرصنة الجزائرية خلال العهد العثماني، و اعتبرها صناعة وطنية كانت لها نظم و قوانين لا تتعدها، بينما كانت قرصنة البرتغاليين مثلا لا تعرف الخضوع لقانون و لا تتقيد بنظام، و كانت نوعا من أنواع الحروب مع الدول البحرية التي لم ترد أن تربط علاقاتها التجارية مع السلطة الجزائرية، فكانت الدول التي لها قناصل بالجزائر تتمتع بالحرية البحرية و لا ينالها من المراكب الجزائرية أي أذى و تدفع مقابل ذلك أداء معلوما سنويا للباشا، أما الدول الأخرى فقد كانت تعتبر في حالة حرب دائمة، تتقاتل مع السفن الجزائرية حيثما التقتا، و يكون المغلوب ملكا للغالب⁽⁷⁵⁾.

إذن القرصنة بالنسبة للمدني نوعا من أنواع الحرب المشروعة النظامية، شاركت فيها كل دول العالم، و لم يكن المسلمون خلالها إلا مدافعين و لم تكن عندهم بأي حال من الأحوال "لصوصية بحر"⁽⁷⁶⁾ ثم إن القرصنة الجزائرية ما نشأت في عهد الأتراك إلا دفاعا ضد القرصنة الإسبانية و البرتغالية، التي كانت في الحقيقة لصوصية بحر لا مبرر لها، إضافة إلى أن مراكب قراصنة الجزائر يقول المدني لا تهاجم و لا تصادر إلا مراكب الدول المحاربة فحسب، و التي لا تربطها بدولة الجزائر معاهدة، أما الدول التي لم تكن في حالة حرب مع الجزائر، فالقراصنة لا يتعرضون لها بسوء إلا نادرا وعن خطأ⁽⁷⁷⁾.

و كعادة المدني في التحليل و المقارنة لم ينس أن يذكر المؤرخين الأوروبيين حين بالغوا في التهجم على القرصنة الجزائرية، كيف أن القراصنة الأتراك و الجزائريين لم يكونوا وحدهم يعملون على سطح البحر، بل إن تاريخ القرصنة حافل بأسماء رجال من مختلف البلدان و

الوطن الجزائري، فقد ذكرنا الأتراك العثمانيين، سواء أكنّا من المعترفين أو من الجاحدين⁽⁶⁹⁾.

و في ختام هذا العنصر نقول و إنصافا للمدني أنه يعترف من جهة أخرى بأن الحكم العثماني في الجزائر ما كان ليفوق أو يضاهي عصورا أخرى من حيث المدنية و الرفاهية و العدل، فهذه لعصر الحكم التركي يقول المدني: " أن يقارب من حيث ازدهار المدنية و إيناع أسواق العلم و الأدب شأو العصر الرستمي أو العصر الحمادي أو العصر الزياني مثلا"⁽⁷⁰⁾. و يؤكد في موضع آخر من "محمد عثمان باشا" هذا فيقول: "نعم الجزائر لم تكن أيام العهد العثماني آخذة بأسباب التقدم العلمي. و لم تكن سائرة بخطى حثيثة في مضمار العمران. إنما شأنها في ذلك شأن بقية بلاد العالم الإسلامي في مشارق الأرض و مغاربها"⁽⁷¹⁾. و في " كتاب الجزائر" ذكر المدني صراحة أن الولاة و أعوانهم كانوا أحيانا يسلكون سياسة ظالمة يذوق منها العرب و البربر الأمرين، زيادة على أنهم كانوا يستأثرون بكل مصالح الدولة لأنفسهم و لا يستعملون أبناء البلاد إلا بصفة معاونين فقط⁽⁷²⁾، أما في تقديمه ل: "مذكرات أحمد الشريف الزهار" فذكر المدني أنه "لم يكن الولاة الأتراك كلهم صالحين. هذه حقيقة ناصعة،..."⁽⁷³⁾.

موقف المدني من القرصنة "الجهاد البحري" في الجزائر خلال العهد العثماني:

في البداية يجب أن نوضح أن المدني استخدم للتعبير عن الجهاد البحري للجزائريين مصطلح "القرصنة" و هو يفرق بينه وبين "لصوصية البحر"، و يبدو أنه لم يكن على اطلاع على مصطلح "الجهاد البحري" و إلا لاستخدمه و وفر على نفسه عناء التفريق بين المصطلحين.

و قد شكل النشاط البحري (القرصنة) أبرز النشاطات الاقتصادية للجزائر، خصوصا خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر الميلاديين، لما يدره من ثروات عبر تجارة المغانم و الرقيق، بالإضافة إلى كونه

أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الجزء الأول، دار البصائر، الجزائر، ص3. (4)- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الجزء الثاني، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص3. (5)- مجموعة من الأساتذة تحت إشراف: أبو عمران الشيخ وناصر الدين سعيدوني، معجم مشاهير المغاربة، دراسة ل: علي علوش بعنوان: "توفيق المدني"، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1995، ص483. (6)- نفسه.

(7)- المدني، حياة كفاح، الجزء الأول، نفسه.

(8)- نفسه، ص4.

(9)- نفسه.

(10)- علوش، نفسه، ص484.

(11)- المدني، حياة كفاح، الجزء الأول، نفسه، ص4.5.

(12)- نادي الترقى، تأسس من طرف أعيان و تجار من العاصمة منهم: "محمود بن ونيش"، "محمد بن مرابط"، و "موهوب بن علي"، وذلك خلال صيف 1926 بحضور 32 رجلا، كان مقره بساحة الشهداء حاليا، افتتح رسميا يوم 3 جويلية 1927، انتخب "محمود بن ونيش" رئيسا له، وتكفل "أحمد توفيق المدني" و "بن مرابط" بتحضير قانونه الأساسي، ويذكر المدني أنه هو صاحب التسمية. للمزيد من التفاصيل أنظر كل من: - المدني، حياة كفاح، الجزء الثاني، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص ص 165، 166، 168. - الوناس الحواس، نادي الترقى و دوره في الحركة الوطنية 1927-1954، دار شطابي للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2013، ص ص 147، 150.

(13)- علي علوش، نفسه.

(14)- عبد الحميد بن باديس، (1889، 1940)، من أشهر رجال الإصلاح بالجزائر، و مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من أعماله "تفسير القرآن" و "شرح موطأ مالك"، و مقالاته في مختلف جرائد جمعية العلماء لمسلمين.

(15)- المدني، حياة كفاح، الجزء الثاني، نفسه، ص7.

(16)- Ali Mered, LRéformisme Musulman En Algérie De 1925 à 1940, Les Edition El Hikma, Alger 2eme édition 1999, p.104.

(17)- البشير الإبراهيمي، (1889، 1965)، ولد ببرج بوعريج و توفي بسطيف، انتخب بعد وفاة بن باديس رئيسا لجمعية العلماء المسلمين بداية من أبريل 1940، له عدة أعمال جمعها نجله "أحمد طالب الإبراهيمي" في عدة أجزاء بعنوان: "آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي".

(18)- المدني، نفسه.

(19)- نفسه.

(20)- نفسه، ص9.

(21)- نفسه، ص ص 9، 10.

(22)- نفسه، كتاب الجزائر، نفسه. أنظر الغلاف الخارجي للكتاب.

(23)- نفسه، حياة كفاح، الجزء الثاني، نفسه، ص288.

(24)- لمزيد من التفاصيل حول الذكرى المئوية أنظر: الياس نايت قاسي، مئوية الاحتلال الفرنسي للجزائر و أثرها على الحركة الوطنية، دار كنوز الحكمة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2013.

الشعوب، و فهم من تمجدهم أممهم اليوم تمجيدا وطنيا و تطلق أسماءهم على دوارعها و مدمراتها الكبرى، و فرنسا نفسها لم تحد على ذلك فهي تخلد كل من "سركوف" الذي اشتهرت أعماله في "خليج البنغال" و "جون بار" و "دوكي تروان"⁽⁷⁸⁾.

و خير ما نختم به هذا العنصر هو قول للمدني من كتابه "هذه هي الجزائر" يوضح فيه أن الدولة الجزائرية التي حاولت فرنسا أن تنكر فكرة وجودها، هي دولة متجذرة في التاريخ حيث يقول: "فالجماهيرية الجزائرية التي تألقت نجمها ساطعا خلال ثلاثة قرون، و لم يكن بها من الجند التركي إلا زهاء ثلاثة آلاف رجل (3000) لا غير، كانت حلقة من تلك السلسلة الاستقلالية الذهبية التي صاغها الجزائريون بجهادهم و دمائهم و مهجهم، و استمرت من يوم أسسوا دولة بني رستم، إلى يوم انهيار مقاومة الأمير عبد القادر الهاشمي"⁽⁷⁹⁾.

الخاتمة:

وفيختام هذه الدراسة المتواضعة نقول أن "أحمد توفيق المدني" أفنى حياته التي امتدت من 1898 إلى 1984 في سبيل العلم و المعرفة، فاستحق عن جدارة لقبه "المفكر" و "المنقذ"، و يكفيه فخرا أنه من الأوائل الذين عملوا على ايصال مادة تاريخية وطنية إلى الجزائريين بلسانهم العربي، وضح من خلالها تاريخهم عبر مختلف العصور التاريخية مركزا على الحقبة العثمانية، رافعا بذلك الغبن عن هذه الأمة، فالذي لا يعرف تاريخه لا يفهم حاضره و لا يستطيع أن يستشرف مستقبله.

و الحقيقة أن هذه الدراسات أكبر من أن تحلل و تنقد في بضع صفحات، فكل دراسة من دراسات المدني حول العهد العثماني تحتاج إلى بحث و تقييم.

الهوامش:

- (1)- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، 1931، ص3.
- (2)- عمر بوزار، وهو ابن مصطفى بوزار التركي الذي كان قائد فريق الفرسان الجزائريين.
- (3)-

- (25)- شارل روبر أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة، عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت 1982، ص144.
- (26)-Ali Mered, Op.cit.p.5.
- (27)- المدني، حياة كفاح، الجزء الثاني، نفسه، ص 12.
- (28)- أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، تحقيق، أحمد توفيق المدني، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 17.
- (29)- المدني، حياة كفاح، الجزء الثاني، نفسه، ص 13.
- (30)- أحمد الشريف الزهار، نفسه، ص 18.
- (31)- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-
- 1791، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 19. (32)- أحمد الشريف الزهار، نفسه، ص 17.
- (33)- المدني، محمد عثمان باشا، نفسه.
- (34)- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 26. (35)- المدني، محمد عثمان باشا، نفسه.
- (36)- سعيدوني، نفسه، ص 27.
- (37)- دوفولكس، كتبه المدني هكذا كما يكتب بالفرنسية، إلا أنه ينطق "دوفو"، ولد سنة 1826 بمرسيليا وتوفي سنة 1876، عمل محافظ الأرشيف العربي بمصلحة التدوين والأماك بالجزائر، ألف العديد من الكتب حول الجزائر العثمانية منها: "العمارة الدينية للجزائر القديمة" و "سجل غنائم البحرية" و "أرشيف القنصلية الفرنسية العامة بالجزائر".
- (38)- المدني، محمد عثمان باشا، نفسه، ص 175، 186.
- (39)- نفسه، ص 187، 217.
- (40)- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 177، 178.
- (41)- نفسه، محمد عثمان باشا، نفسه، ص 19، 20.
- (42)- محمد بكداش، هو محمد بن أبي الحسين نور الدين علي بن محمد داي الجزائر من 1707-1710، حرر وهران التحرير الأول من يد إسبان سنة 1708، اغتيل على يد "دالي ابراهيم" سنة 1710.
- (43)- المدني، محمد عثمان باشا، نفسه، ص 20.
- (44)- علي علوش، نفسه.
- (45)- المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، نفسه، ص 7، 8.
- (46)- نفسه، ص 8.
- (47)- نفسه، حياة كفاح، الجزء الثاني، نفسه، ص 287، 288.
- (48)- نفسه، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، نفسه.
- (49)- نفسه، ص 9.
- (50)- توبكاي، قصر بنه السلطان العثماني "محمد الفاتح" سنة 1478، سعي في البداية "يبي سراي" أي "القصر الجديد"، أما "توبكاي" فمعناه "الباب العالي"، كان مقر السلاطين العثمانيين حتى القرن 19م.
- (51)- المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، نفسه، ص 12.
- (52)- الموقع الخاص بالأستاذ أحمد توفيق المدني: www.elmadani.org
- اطلعت عليه يوم: 2018-04-21 على الساعة 16:50.
- (53)- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 61. (54)- نفسه، هذه هي الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 66. (55)- أنظر: المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، نفسه، ص 182. وأحمد الشريف الزهار، نفسه، ص 19.
- (56)- أحمد الشريف الزهار، نفسه، ص 23، 24.
- (57)- المدني، كتاب الجزائر، دار البصائر، نفسه، ص 59.
- (58)- نفسه، محمد عثمان باشا، نفسه، ص 20.
- (59)- أحمد الشريف الزهار، نفسه، ص 20.
- (60)- المدني، محمد عثمان باشا، نفسه. (61)- نفسه، هذه هي الجزائر، نفسه، ص 65. (62)- نفسه، ص 66.
- (63)- سفيان صغيري، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر 1671-1830، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، إشراف الدكتور حسينة حماميد، قسم العلم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، السنة الجامعية 2011-2012، ص 77.
- (64)- سعيدوني، نفسه، ص 216.
- (65)- المدني، هذه هي الجزائر، نفسه، ص 66-67.
- (66)- صغيري، نفسه، ص 76-77.
- (67)- المدني، محمد عثمان باشا، نفسه، ص 21.
- (68)- نفسه، ص 22، 26.
- (69)- نفسه، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، نفسه، ص 9.
- (70)- نفسه، محمد عثمان باشا، نفسه، ص 20.
- (71)- نفسه، ص 24.
- (72)- نفسه، كتاب الجزائر، دار البصائر، نفسه، ص 60.
- (73)- أحمد الشريف الزهار، نفسه، ص 21.
- (74)- عطلي محمد الأمين، نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر وأثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف أ. د عمار بن خروف، المركز الجامعي بغرداية، السنة الجامعية: 2011-2012، ص 37.
- (75)- المدني، كتاب الجزائر، دار البصائر، نفسه، ص 62.
- (76)- نفسه، محمد عثمان باشا، نفسه، ص 23.
- (77)- نفسه، ص 22-23. وانظر أيضا: المدني، هذه هي الجزائر، نفسه، ص 67. (78)- نفسه، ص 23-24.
- (79)- نفسه، هذه هي الجزائر، نفسه، ص 70.

- قائمة المصادر والمراجع: 1- باللغة العربية:
- أجرون (شارل روبار)، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، 1982.
- الجواس (الوناس)، نادي الترقى و دوره في الحركة الوطنية 1927-1954، دار شطايب للطباعة و النشر و التوزيع، 2013.
- سعيدوني (ناصر الدين)، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.
- مجموعة من الأساتذة تحت إشراف الدكتور أبو عمران الشيخ و ناصر الدين سعيدوني، معجم مشاهير المغاربة، دراسة ل: علي علوش بعنوان "توفيق المدني"، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1995.
- المدني (أحمد توفيق)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، دار البصائر، الجزائر، 2009. - المدني (أحمد توفيق)، حياة كفاح، الجزء الأول، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- المدني (أحمد توفيق)، حياة كفاح، الجزء الثاني، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- المدني (أحمد توفيق)، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، 1931.
- المدني (أحمد توفيق)، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- المدني (أحمد توفيق)، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- المدني (أحمد توفيق)، هذه هي الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- 2- باللغة الفرنسية:
- Ali Mered, Le Réformisme Musulman En Algérie de 1925 à 1940, Les Editions El Hikma, Alger, 1999.
- 3- الرسائل الجامعية: - صغيري (سفيان)، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر 1671-1830، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث المعاصر، إشراف الدكتوراه حسينة حماميد، قسم العلوم الانسانية، جامعة الحاج لخضر باتنة، السنة الجامعية 2011-2012.
- عطلي محمد الأمين، نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر وأثره في التاريخ الحديث، إشراف الأستاذ الدكتور عمار بن خروف، المركز الجامعي بغرداية، السنة الجامعية 2011-2012.4 - الشبكة العنكبوتية: - الموقع الإلكتروني التالي: www.elmadani.org